مكتبتي

من وحي الأنبياء

تأليف : لينا كيلاني
رسوم : منال بدران

٤٠

دار المعارف

مكتبتي ١٩

من وحي الأنبياء

تأليف: لينا كيلاني

رسوم: منال بدران

دار المعارف

تصميم الغلاف: محمد أبو طالب

الناشر: دار المعارف . ١١١٩ كورنيش النيل . القاهرة: ج.م.ع.

. . . . . .

إعداد الماكيت: أماني والي

"سلام على نوح"

لم يكن قد مضى على هبوطِ آدم من الجنَّة إلى الأرضِ سوى ١٠٥٦ سنة عندما ولـ.د نُوح.. والأرض خيراتُ تفيض بالنعم من أشجارٍ ذاتِ ثمارٍ غَاباتٍ ونباتاتٍ وكل أنْواع الطيورِ والحيوانات... وفيها أيضا المعادِن النفيسةُ كالذهبِ والفضة، والمعـ.ادن الرخيـ.صةُ كالحديـ.دِ والنحاسِ لصهرها والاستفادةِ منها. وكيفَ لا يكون الأمر كذلك وقد علَّم الله تعالى آدم الأسماء كلَّها، ولقنه أسرار الأرضِ والسماء؟ الأرض ليعيشَ وعليها البشر متحابين متُعاونين يتقاسمون أرزاقها ويعطفُ بعضهم على بعضٍ فلا يكون بينهم غني ولا فقير، ولا ظالم ولا مظلُوم، أمـ.ا السماء فهي منبع هدايةِ البشرِ يحمل رسالاتَها الأنبياء والرسل، لكي يعبد الناس الله ولا يعبدون سواه.

الأرض جميلةُ... وأعداد البشرِ فيها قليلَة، وعبادةُ الله مفروضةُ بالأدلةِ التـ.ي تـ.شهد بقدرتهِ وعظمته، فما بالُ هؤلاءِ الناس يعبدون أصناما منحوتةً من خشبٍ أو حجر، ويطلقُـ.ون عليها أسماء مثْلَ (ود، وسواع، ويغُوثَ، ويعوقَ، ونَسر)[1] وينسون خالقهم العظِيم؟ ما بـ.الهم يستكبرون في الأرضِ وينصرفُون عن تعاليم السماء؟

---

(١) سورة نوح (أية: ٢٣).

مِن بين هؤلاءِ البشَرِ القلائلِ يوحي اللهُ تعالى إلى واحدٍ منهم (نوح) أن يهـ.دِي قومـ.هِ إلى عبادةِ الله تعالى وحده، وأن ينشر الخير والعدل بدل الظلمِ والشَّر. لكنهم لم يستمعوا له ولم يأخذُوا بنصائحِه وإرشاداتِه، وكلما طال عمرِه زاد همه وغمه فهؤلاء قومه وعشيرتُه وأهلُـ.ه يريد لهم الهداية ويطمع في أن ينصرفوا عن الغواية.

سلام على نُوح.. هذَا النبي الجليلُ النبيلِ... العابد الصابر... المؤمن بالله وبرسـ.الته إلى كلِّ جبارٍ كافر.

سلام عليه وهو يبشر بين قومه ليلاً ونهارا... سرا وجهـ.ارا فـ.لا يـ.ستمع إليـ.ه إلا الضعفاء والمساكين والفقراء وهو يقولُ لهم: بل أنتم الرابحون عند الله وهـ.م الخاسـ.رون... وأنتُم الأقوياء بِالله... وهم الضعفاء من دونِ الله... يستطيعون أن يظلموكم... وأن يأخذُوا من أموالكُم إلى أموالهِم، لكنهم لن يخلدوا في الدنيا فسوفَ يلاقون ربهم يوم القيامة، وهو القـ.ادِر على عِقابهم في الدنيا والآخِرة، لا يقدرون، وإن انتزعوا منكُم كلَّ شيءٍ، أن ينتزعـ.وا مـ.نكُم عقولكُم وأرواحكُم.

فكانُوا يقولُون له: يا نبي الله. إلى متَى نصبِر؟ إنهم لا يتجاهلُوننا فقط ويؤذوننَا، بـ.لْ يسخرون منَّا ويهزؤون بنا، ويبتعدون عنَّا وكأننا منبوذُون! فلماذَا لا يهتدون؟

وكن هذا الشيخُ الكريم... المحمود عند ذي العرشِ العظِمي يمد في أملهِ كلما مـ.د الله في أجله حتى طَوى من العمرِ مئاتِ من السنين... يعيشُ مع جماعتهِ في الفقر... ويعاني مـ.ا يعانون من القهر حتى بذلَ كلَّ ما لديهِ من جهد... ولم يبقَ إلا أن يحققَ له رب الوعد. الوعد بنجاته من هؤلاءِ الكفار... وألا يبقى منهم على الأرضِ من ديار[٢]. ولكن كيفَ النجاة؟

ويوحى له ربه أن يصنع سفينةَ ضخمةً عظيمةً، وهو على اليابسة، وأن يعاونه فيهـ.ا من آمن معه مِن أهلِه وقومه حتَّى إذا جاء الطوفان نَجوا بها وهلك الكافرون.

إن صنْع السفينةِ على كبرها واتساعها أصبح أملا... وهي اصطبار... كما هي إنذار. وكلما مر الكافرون ورأوا نوحا وجماعتَه وما يصنعون... دائبـ.ين... ذ.شيطين... مـ.ؤمنين هزءوا بهم وقالُوا: لِم تصنع يا نوح هذِه السفينة؟ أتراك سقتطن فيها مع جماعتِك؟

وهو يقولُ لهم: أمرني ربي بصنعها... وهي من الهلاكِ بالطوفانِ ستنْجينَا... آمنـ.وا تنجوا...،إلاَّ نزلَ بكُم العقَاب..

وإذا يسمعون ذلك لا يزدادون إلاَّ كفرا وضلالاً حتَّى إنهم تحدوا نوحا وقالُوا له: متى سيأتِي وعد ربك؟ إننا منتظِرون.

---

(٢) ديار: أي نازل دار، والمعنى: أحدا.

سلام على نُوح... فقد جاء وعد الله.. وأصبحت الأرض تفور بالماءِ المخزونِ فيها... والسماء تهطلُ بأمطار لا عهد لأحدٍ بها... حتَّى فاضت المياه وغمرت كلَّ شيءٍ فتحركت السفينةُ بعد أن وضعوا فيها من كل زوجينِ اثنينِ... من الطيورِ والحيواناتِ... كذلك دعوا إليها الناس من المؤمنين والمؤمناتِ.

سلام على نوح...

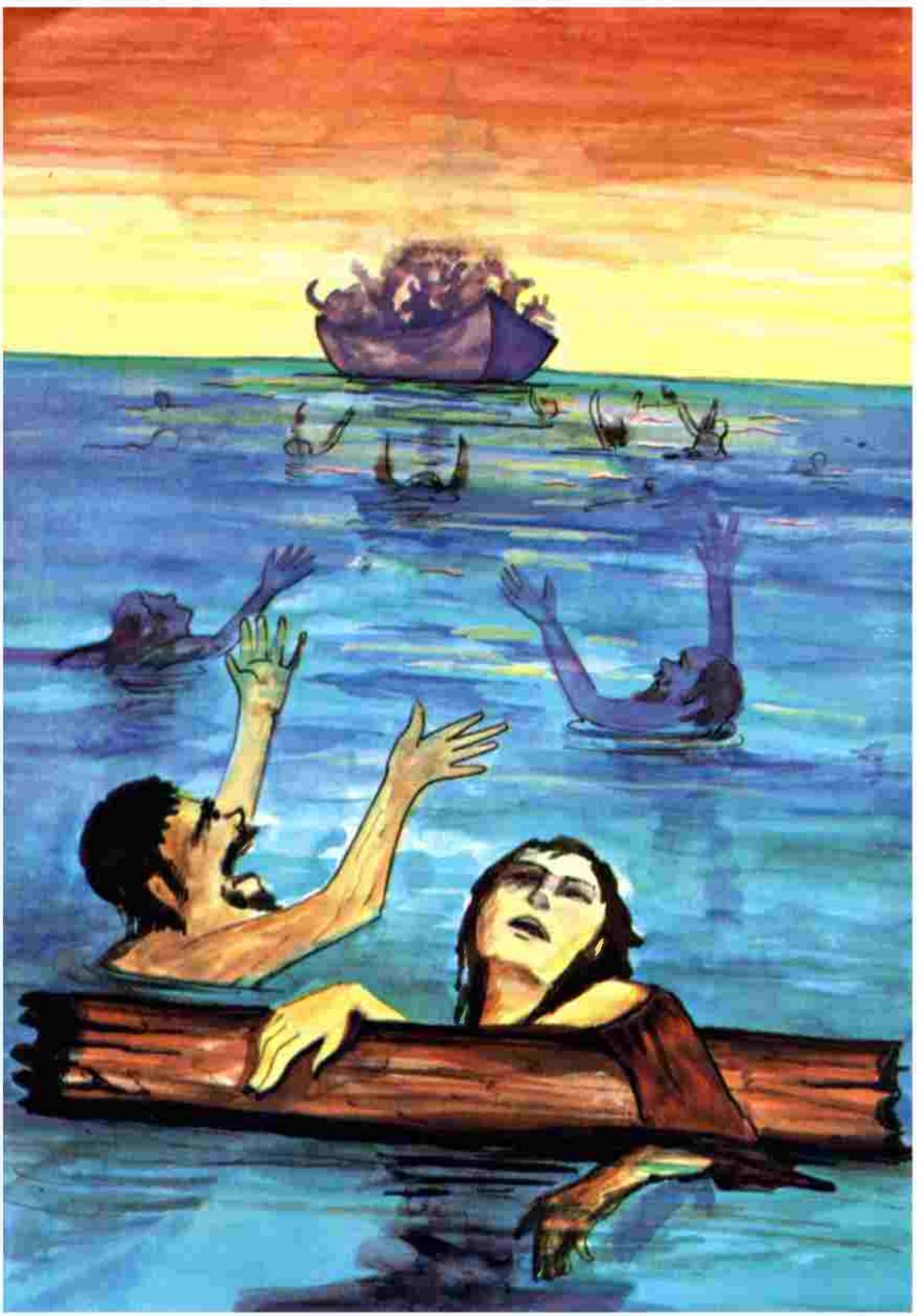

في ذلك الصباحِ الذِي أشرقَ نوره بالإيمان، وظهر الحقُّ بالحجةِ والبرهان كان نـوح متألما يبكِي قومه والكثيرن من أهلهِ حتَّى امرأتَه التي لم تُؤمن، وابنهما الذي لم يطـع نـداء والدِه...

ورفْرفت فوقَ المياهِ من بعيد حمامةُ حملَت فيِ منقارها غصن زيتونٍ كانِ عائما فِوقَ الماء بعد أن هلك البشر والحيوان والشجر، فأدرك نوح أنه قد قُضِي الأمر... ووضِعت النهايةُ للعذابِ والصبر. فنزلَ من جديدٍ مع أهله وأعوانه وإخوانه ليملأ الأرض صـلاحا وفلاحـا... بعد أن أبيد فيها من عبد الأصنام.... وكفر برب الأنام.

سلام على نوح... سلام سيظلُّ نداء البشر... من وإلى الأزل.

"يا نَار كُوني بردا وسلاما"

إبراهيم... ذلك الفتى الذكي النابه الذِي كان يتأمل الكون وهو تائه يتساءل ويحتـ.ـرق بنار السؤال.. تُرى من هو الإله الخالق؟ ولماذا يعبد أهله وقومه هذه التماثيل الحجرية التـ.ـي يصنعوها بأيديهم؟ إنها حجارة صماء لا تضر ولا تنفع... وما الفارق بـ.ـين أن يكـ.ـون أحـ.ـد التماثيل قطعة حجرٍ أو أن تعمل فيه أيدي الصناع والنحاتين فينقلب إلى إلـ.ـه معبـ.ـود؟ هـ.ـذه التماثيل تحاصره من كل جانب... وكيف لا وأبوه كبير النحـ.ـاتين وزعـ.ـيم المـ.ـؤلهين لهـ.ـذه الأصنام.

لكن نار الشك تهدأ عندما يملأ النور قلبه.. ويهتدي إلى سبيل اليقين.

في ليلة قمراء يتأمل صفحة السماء... يرى القمر ساطعا يطل علـ.ـى الكـ.ـون وكأنـ.ـه يرعاه.. وبعد أن يقول لنفسه إن هذا القمر إله.. يأفل ويغيب... والإلـ.ـه لا يأفـ.ـل ولا يغيـ.ـب. وهكذا كان الحال مع الشمس واهبة النور والحياة... إلا أنها هي الأخرى قطعت شوطها بين

المشرق والمغرب، وغابتْ.. عند ذلك انطفأت نار شكوكه وذابت، إذا لابد أن هناك إلها هـ.و خالق كل شيء... القمر والنجوم.. والشجر والبشر، فكيف يعلن هدايته هذه لقومـ.ه؟ وكيـ.ف يخرجهم عن ضلالهم وغيرهم؟!.. ليقم إذن بتجربة عملية تحقق له هدفه... دون أن تخيفه أو تستدعي أسفه. وبعيدا عن العيون من قومه.. وفي غفلة من أبيه يدخل إلى مجمع الأصـ.نام... يحطمها واحدا واحدا ما عدا كبيرها... وإذ يكتشف القوم الأمر يجدونه فظيعـ.ا.. ويتـ.ساءلون عن الفاعل ويجرمونه فيجيبهم إبراهيم بجرأة وتحد: لماذا لا يسألون كبيـ.ر الأصـ.نام؟ وهـ.ل يستطيع أن ينطق؟ وهل له حول أو قوة؟

وعندما يفحمهم بهذه الأسئلة التي لا أجوبة لها يبلغ بهم الغضب منتهـ.اه. ولا يعـ.ود إبراهيم يفرق بين سخط أبيه ورضاه، لكن الأب يعلن موقفه مما جرى... وأنه لن ينضم إلـ.ى صف ابنه الذي اهتدى. ويقرر القوم وسيدهم أن يحرقوا هذا الفتى عقابا له وتخلصا منه.

يا نار كوني بردا وسلاما....

إنها نار الهلع والفزع... نار القسوة والظلم لا التقى والورع إذ كيف يحرقون واحـ.دا من قومهم... وابنا لمن يصنع لهم تماثيلهم وآلهتهم؟

لكن النار كانت بردا وسلاما... إذ مـ.لأ الله قلـ.ب إبـ.راهيم ببـ.رد الإيمـ.ان فتقبـ.ل مصيره..،رضي بقرار جائر... وحكم أقسى من سيف باتر.

ويبنون سورا ليحيط بالنار... ويجمعون لذلك خشبا وحطبا ليوقدوها لهبا.. ولا يكـ.ون لمن يلقى فيها هربا. لكن النار كانت بردا وسلاما... أبطل الله مفعولها.. فتقلب إبراهيم بـ.ين ألسنتها في سلام. وكانت بردا وندى.. ولو أنها في حاجزها بلغت من الشدة المدى.

النار . كل نار . أصبحت بردا وسلاما... وإبراهيم أصبح نبيا بعد التجربة المعجزة إلا أنه يحتاج إلى اليقين الذي ما بعده يقين.. بظهور الحق المبين في عمليـ.ة الخلـ.ق. يـ.سأل إبراهيم ربه الواحد القهار... خالق الشمس والقمر والليل والنهار أن يريه بأم عينه كيف تكون الحياة في الجمادات أو كيف تدب في الأموات. فيأمره ربه أن يقطع أوصال الطير ويضع لها علامات ويفرقها في أمكنة مختلفة. ولو كانت أعالي الجبال ثم يدعوها إليه فيرى النتيجة.

وقد فعل ورأى.. وجاءت الطير خافقة الأجنحة مملوءة بالروح والحيـ.اة... فمـ.لأت السكينة فؤاده... والقناعة عقله. ولم يعد أمامه إلا أن يخرج من دياره بعد أن طـ.رده قومـ.ه واستعصى على الهداية أبوه... ولم يبق له سوى زوجته سارة ولوط ابن أخيه...

خرج يحمل الهداية مشعلاً.. ينير به طريق الضالين والنبوة رسالة دونها كل المخاطر والمهالك مهما تنوعت الأسباب وتعددت المسالك... وامتد به الطواف بـ.ين أرض فلـ.سطين والأردن حتى وصل إلى مصر... متعبا شريدا... متخوفًا من نار أخرى هـ.ي نـ.ار المكائـ.د والدسائس.

يا نار كوني بردا وسلاما...

أشعلت نار الفتنة بين ملك مصر وإبراهيم، لكنها خدمت فأقام في مـصر وامتـد بـه العمر. ولما بلغ منه عتيا، ولم يرزقه الله من سارة بنتًا ولا صبيا رضي أن يتزوج من هـاجر الجارية المصرية فولدت له على الكبر إسماعيل... ولم تلبث أن اشتعلت نار الأباطيل فرحلت بابنها عن سارة وأبيه نحو المجهول حتى حط بها الرحل في أرض الحجاز حيث أول بيت لله بمكة في مكان موحش مهجور. فأنجدها الله فتفجر ماء زمزم ونما الزرع.. وحل أقوام بمشاية وضرع فاستقرت واستقام أمرها حتى شب ابنها.

وعادت النار بردا وسلاما بعودة الأب إلى ابنه، وإطاعة أمر ربه أن يعيدا بناء البيت العتيق ليرتفع فيه نداء الوحدانية وتعلن الحنيفية مبدأ الإسلام لله تعالى.

﴿ **يا نَار كُوني برداً وسلاماً** ﴾...

إنها نار الامتحان... امتحن فيه الطرفان الأب وابنه... الأب بصبره وجلده إذ أمـره ربه بذبح ولده... والابن بطاعته لخالقه ولوالده... واستسلامه لمصير يغنيه عن الدنيا. إلا أن الله تعالى افتدى الابن بكبش سمين... وانجلى الحق بنور اليقين.

وأخيرا جاءت إبراهيم البشرى... أن سيرزق من سارة العجوز العقيم بولدين بأمرِ الله العلي العليم مكافأة من ربه على صبره... بشرته الملائكةُ فجاءه على الكبـر الممتـد أكثـر (إسحق) ومن بعده (يعقوب)[٣] وعمره مائة سنة أو يزيد، وبما أنه عاش (١٧٥) سنة فيكـون ولداه إسحق ويعقوب قد عاصراه ثلاثة أرباع القرن أو يزيد.

---

(٣) الآية : ١٧ . سورة هود.

يا لقصتك يا إبراهيم.. لقد أخمدت نار الكفر وعبادة الأوثان على مدى الزمان... كنت أبا للأنبياء الذين حملوا رسالات السماء... موسى وعيسى ومحمد ﷺ... وغيرهم من الرسل والأنبياء من أبنائك وأحفادك وممن حملوا الحنيفية الموحدة أساسا لكل الأديان.

* * *

﴿ وآتَينَا داوود زبوراً ﴾

الزبور... وما الزبور؟ ليس كتابا كـ.القرآن.. ولا شـ.ريعة كـ.التوراة.. ولا تعـ.اليم كالإنجيل. إنه قصائد وأناشيد فيها تسبحي لله وحمده... والتـ.ضرع إليـ.ه. وعـ.ددها (١٥٠) مزمورا.

المزامير هي تناغم الإنسان مع الطبيعة. والطبيعة التي تسجد لله تعالى، ويسبح كل من فيها بحمده وإن كنا لا نفهم تسبيحه[٤]. والطرفان. الإنسان والطبيعة يذوبان في كيان واحد هو كيان الإيمان. هل المزامير كلها لداود؟ الأرجح أنها ليست كذلك. وإنما أضيف عليها، وذ.سج على منوالها من أنبياء آخرين وقديسين وصالحين تقربوا بها إلى الله. ولـ.م لا؟ أليـ.ست هـ.ي بحيرة النور لصفاء النفس الإنسانية عندما تحلق بالروح إلى السماء، لا سيما إذا انبثقـ.ت مـ.ن الألحان والأنغام، وتردد صداها مع الصوت الجميل؟

﴿ وآتَينَا داوود زبوراً ﴾...

---

(٤) الآية: ٤٤ . سورة الإسراء.

منذ الصغر وداود يهيم في البرابري... يرعى الغنم... ويردد بصوته العذب أغ.اني وأناشيد حفظها.. دينية وغير دينية ويتلمس آلته الموسيقية البسيطة ولعلها الذ.اي فيـ.شعر أن الكون من حوله أصبح أجمل.. وكل شيء فيه أكمل وأفضل.. تصمت الطيور المغ.ردة... إذ تسمعه... وتتوقف الحيوانات عن أن تصدر صوتًا أو حركة.. وينحني الشجر.. ويهدأ هـ.دير السواقي وخرير الأنهار. إنها لحظات السكينة والغبطة عندما يتجلى الله في مخلوقاته. وهـ.ي أعظم آياته. وداود الصغير مرهف السمع والإحساس والبصر يتساءل: ترى هل هذا يحـ.صل معه وحده أم مع كل من ينشد ويعزف وهو خاشع! ولقدرة الله مذعن وخاضع!

ولم يتحدث داود عن ذلك لأحدٍ... لكن أهله وقومه لاحظوا اذ.صرافه عـ.نهم وعـ.ن حروبهم واقتتالهم... وعن مشاحناتهم وانشغالهم بالمال والنفوذ والمناصب والعروش... فها هو يهرب منهم دائما إلى البرية ويتوحد معها بل مع رب البرية.

في الثالثة عشر من عمره حصلت معه تلك الحادثة العجيبة أو المعجزة.

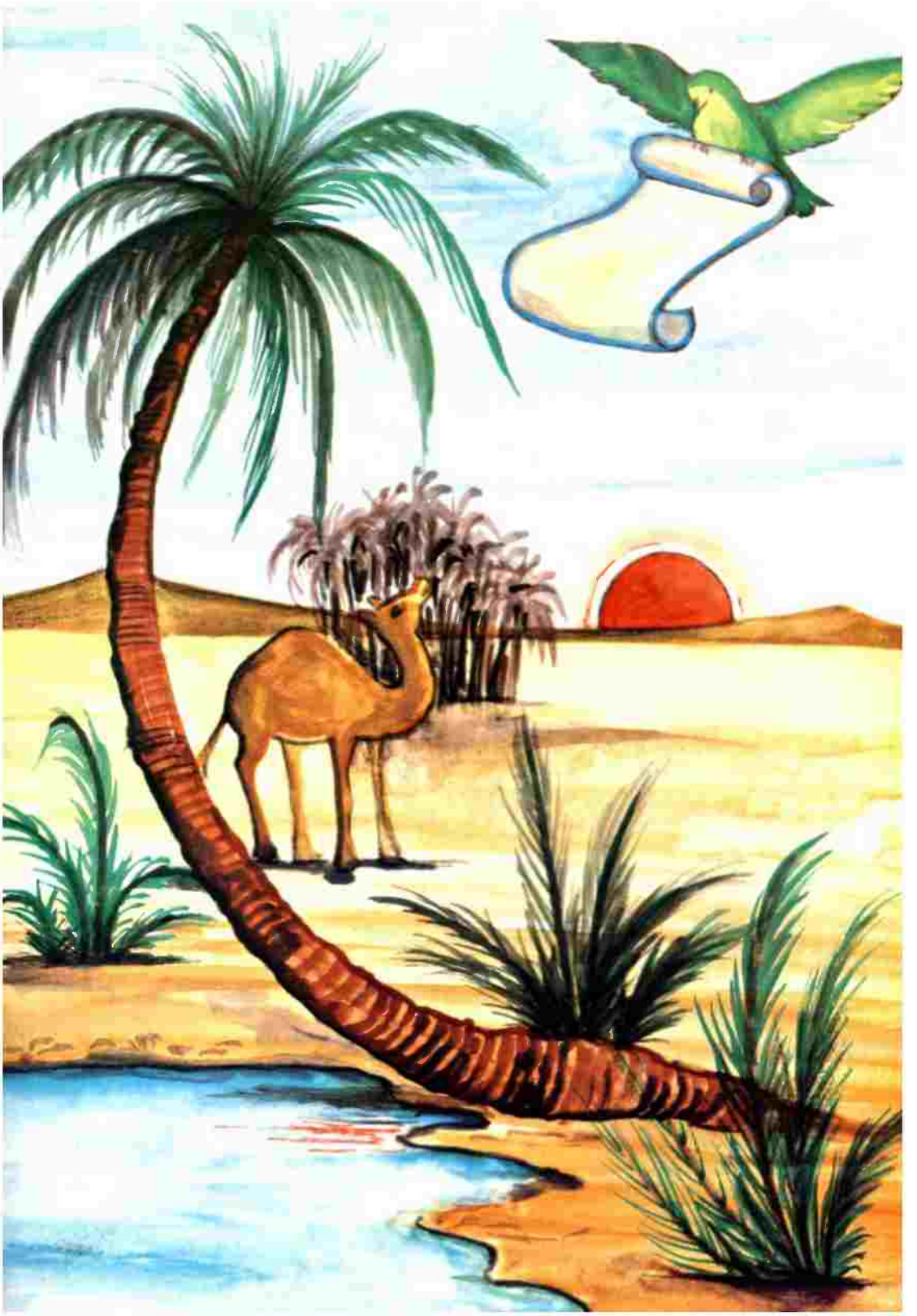

فقد قامت حرب بين ملك بني إسرائيل طالوت، الذي يحمل شـ.ريعة موسـ.ى، وبـ.ين الكفار بزعامة جالوت. ورغم أن كثيرين من قومه قد هربوا من الحرب... أو تخاذلوا عنهـ.ا وأصبحت المعركة فاصلة فقد أصبح طالوت بحاجة إلى أي أحد ينجده ويعينه. وعلى الـ.رغم من أن طالوت كان محاربا قويا بقامة طويلة وجسم عريض يتحمل القتال فقد كان في حاجـ.ة إلى من يسانده ويقف إلى جانبه، فتقدم داود باندفاع الفتيان وحماسهم وإيمانهم بالحق. وبما أنه لم يكن يملك سلاحا، ولم يكن فارسا فقد هداه ربه والمعركة على أشـ.دها أن يقـ.ذف جـ.الوت بحجر... فأصابه في رأسه فقتل بعد أن عجز عن ذلك الفرسان بسيوفهم ودروعهم وهم فـ.وق خيولهم فكان هذا علامة إليهة.. بأنه نبي من أنبياء البشرية.

وآتينا داود زبورا.

لكن داود عاد بعد هذه الحادثة إلى سابق عهده.. يرعى الغنم... ويهيم فـ.ي البـ.راري والقفار.. يستلهم روح الكون مع النشيد والمزمار. وإذا به يفاجأ بأن الطير وكل من لـ.ه لغـ.ة خاصة به من الحيوان يحدثه فيفهم منه ما يقول... وإذا به يطلقُ أحد مزاميره فيأتي الـ.صدى من الجبال رجعا وكأن الجبال تردد ما ينشد. ويتهافت الطير إليه طوعا. ويتجمـ.ع الحيـ.وان حوله أنسا لا روعا فإذا أنشد أنشدت.. وإذا أمسك أو توقف أمسكت.. إنه الترجيع.. ومعجـ.زة أخرى من الخالق البديع... بديع السموات والأرض وما فيهما من أسـ.رار... هـ.ي موهبـ.ة للأنبياء البربرة الأطهار.

وآتينا دود زبورا..

وهذه المرة... اندمجت المعجزةُ مع فوائد تحصن قومه من الخطأ والـ.ضلال ومـ.ن شرور أنفسهم ومن أعدائهم... وتحفظهم من الويلات والآثام. أليست الحـ.رب هـ.ي الوسـ.يلة والسبب... وهي التي تجعل العزة لمن غلب؟ إذن لماذا لا يساعد قومـ.ه وهـ.م علـ.ى حـ.ق وأصبحوا مخلصين في الدين فيصنع لهم الدروع ما دام لا يستطيع أن يشاركهم فـ.ي القتـ.ال؟ ويمسك بين أنامله الحديد القاسي فإذا به . وبقدرة الله تعالى . يصبح ليناً مطواعا كـ.العجين، فيلهمه ربه أن يصنع دروعا من زرد وحلق تكون أسهل وأخف على المقاتـ.ل إذا ارتـ.داها.. وأكثر صوناً له في الحرب سواء طالت هذه الحرب أو قصرت فلا تتقرح وراءها الجـ.روح. وهكذا ساهم في نصر الحق على الباطل... وإذا بكل من حوله حتى الذي لم يؤمن به متعجب ذاهل!

فها هو نبي المزامير والأناشيد، يصنع الدروع ويلين له الحديد...

وآتينا داود زبورا..

ويعود الشاب وقد أصبح رجلاً ناضجا.. ونبيا مكرما تهبط عليه الإلهامات النبوية.. كما الألحان السماوية.. وإذا بالكلمات تصبح علوية محملة بالمعاني الجليلة... والحكمة التي تهدي للحق والفضيلة.. يأخذ في تأملها واستنباط الأحكام الدنيوية الصحيحة الكامنة فيها... فإذا بأقواله تصيب الحقيقة... وأحكامه تسري عدلاً بين الخليقة، فيتجمع حوله بنو قومه يسألونه ويستشيرونه ليفصل بينهم.. وليقضي بأحكامه فيما تعذر أو تعسر لديهم. وبما أن القول يجب أن يقترن بالفعل فإن ربه يمتحنه فيما يقول من الحكمة... أن يطبقها على نفسه أولاً قبل أن يطبقها على الآخرين... وأن تكون أحكامه شاملة وعادلة.

وآتينا داود زبورا...

وهكذا علمته المزامير.. أن الله تعالى هو الأول والآخر وبيده كل شيء الملك والمال والجاه والبنون... داود زاهد متواضع... وبما آتاه ربه راضٍ وقانع.. لكن الله تعالى أراد أن يرفعه إلى مصاف الملوك... وأن يجعله أبا لسليمان ملك الملوك... صاحب الخوارق والمعجزات... الباقيات على الدهر شواهد خالدات... وأن يورث ابنه الحكمة والعلم.. كما يورثه النبوة والحكم.

وآتينا داود زبورا...

والزبور محبة للخالق الواحد الأحد... القادر على كل شيء الصمد... والمزامير واحة للنفس البشرية... تطهرها وتنقيها من شوائب الرغائب الحسية والمادية لترفعها إلى أعلى عليين إلى عالم الأنبياء المطهرين بلا فساد ولا فحش.. ولا خداعٍ... ولا طمع ولا جشع... ولا ظلم... ولا جرم.. وإنما هو الصفاء.. وحبل النور الممتد بين الأرض والسماء.

* * *

"ما هذا بشرا..."

ما هذا بشرا... إن هذا إلا ملك كريم...

منذ أن ولد يوسف لأبيه يعقوب.. هذا الشيخ الطاعن في السن.. والـذي رزق قبلـه بشعرة من الذكور حتى فرح به جدا..وأحبه جدا فقد لاح النور في وجهه..نور الجمال.. ونور النبوة.. نور إلهي ينبئ أن هذا الصغير مختلف عن سائر الصغار... وحتى عـن إخوانـه... وأنه ممجد عند مسير الأفلاك.. وأنه مثل ملاك... أو هو ملاك.

وظل أبوه يحبه ويؤثره على سائر إخوته حتى بعد أن رزق بأخيه الأصغر (بنيـامين) وهما من أم واحدة... وقد ألهم الله يعقوب أن يوسف سيغدو نبيا مكرما.. ولكـن لابـد مـن مراحل لامتحانه واختبار صبره على المكاره وتعلقه بدينه وإيمانه.

الصغير يوسف يلهو ويلعب تحت عيون والده... لا يفارقه... ويزداد مع الأيام محبـة له. وما كان أحد يراه إلا أحبه من الأقرباء أو الغرباء، حتى أن عمتـه أرادت أن تستخلـصه لنفسها فتربيه. وحرصت على ذلك بعد زيارته لها فترة لكن أباه رفض، فهو إضافة إلى حبـه له ورغبته في ألا يفارقه أراد أن يظل معه إخوته... رغم أن هؤلاء الإخوة أصبحوا يغـارون منه ويغتاظون من جماله ومن مكانته عند أبيهم وقد انشغل به عنهم وكأنه ليس له سواه.

بدؤوا يدبرون له المكائد وهم صغار... وفتيان مراهقون... وشبان طائشون. وفي كل مرة كانوا يفشلون. حتى عزموا عزمهم الأخير على أن يخفوه عن وجه أبيه ولو بالموت.. فطلبوا من والدهم أن يأخذوا يوسف معهم أثناء سباق للجري، وبما أن يوسف كان صغيرا لا يتعدى عمره سنوات معدودة فقد قال لهم الأب: إن يوسف لا يقدر على الجري... وأنه يخاف لو تركوه بعيدا عنهم عند متاعهم أن يأكله الذئب.. فرحوا بما سمعوه فكأن أباهم دلهم على الحيلة المطلوبة. فأخذوا يوسف... وغابوا حتى العشاء، ثم عادوا وهم يبكون ويدعون أن الذئب أكله بعد أن نزعوا عنه قميصه ورموه في البئر.. أما القميص فقد لطخوه بدمٍ كذبٍ وأدرك الأب المكيدة. وأن الله تعالى بدأ يمتحنه وابنه يوسف الذي سيصبح نبيا. فصمت... وصبر.. أما يوسف فقد أخرجه بعض المسافرين إلى مصر من البئر. جائعا.. وعاريا.. فباعوه بثمن زهيد إلى نخاس.. وهذا بدوره أغرى به حاكم مصر... الذي تعلق به لرقته وجماله وبراءته والنور الذي يطفح من وجهه فاشتراه.. وأوصى امرأته أن تعامله أحسن معاملة.

ما هذا بشرا... إن هذا إلا ملك كريم

لقد نشأ يوسف على الفضيلة والخلق القويم... محتفظًا بتعاليم دينه فهو يتذكر أباه يعقوب... وجده إسحق ودين جدهما إبراهيم... دين التوحيد العظيم. وهو يحافظ على عقيدته وينفر من عبادة الأصنام ومن الاستهتار بالأخلاق الحميدة وارتكاب الحرام. نشأ مخلصا لسيده. يحافظ على ماله وعرضه ويخدمه بأمانة ونزاهة وشرف.. فهو لا ينسى أبدا أن هذا السيد آواه.. وأكرم مثواه.

لكن امرأة العزيز... وهي متكبرة مستهترة أرادات أن توقع يوسف . وهو شاب لـ.م يبلغ العشرين . في الخطيئة.. والخيانة ولما لم يستجب لها حقدت عليه واتهمته زورا.. وشاع الخبر في البلاد فإذا بالنسوة يلمنها على ذلك وهن لا يعرفن من هو يوسف.. فدعتهن امـ.رأة العزيز إلى بيتها وجعلت يوسف يظهر أمامهن وهن يقطعن الفاكهة والأطعمة بالسكاكين بهرن بجماله... وبالقداسة والطهارة تتبعان من محياه.. فجرحن أيديهن وقلن: ما هذا بشرا. إن هـ.ذا إلا ملك كريم.

وأثار ذلك غضب امرأة العزيز فما زالت تحرض زوجها ضده وتتهمه بالسوء حتـ.ى زج به في السجن.

وفي السجن... وبعد هذا الامتحان العسير، بدأت علامات النبوة، فقد أعطاه الله علـ.م معرفة الغيب... وتأويل الرؤى في النوم بما سيحدث في الواقع. وجاء البرهان عـ.ن طريـ.ق اثنين ممن صاحبوه في السجن، أولهما هو كبير الخبازين عند الملك، والآخر كبير السقاة.. فقد رأى كل منهما رؤيا أراد أن يفسرها له يوسف فجاءت الأحداث فيما بعد مطابقة لهذه الرؤيـ.ا. أما الأول كبير الخبازين الذي رأى فوق رأسه طبقًا تأكل منه الطير فقد قتل... وأمـ.ا الآخـ.ر كبير السقاة الذي رأى أنه يعصر العناقيد في كأس الملك فقد أفرج عنه وعاد إلى منصبه يسقي الخمرة للملك.

ولما رأى الملك نفسه رؤيا تكررت في صورتين مختلفتين وهي سبع بقرات عجـاف يأكلن سبع بقرات سمان.. وسبع سنابل يابسات يأتين على سـبع خـضر فقـد أراد أن يفهـم المغزى من وراء ذلك، فتذكر كبير السقاة وهو المقرب من الملك قصته مع يوسف وامتدحـه وأثنى على تفسيره للرؤيا فأمر الملك بإخراجه من السجن. لكن يوسف أبى حتى تعترف امرأة الحاكم وبقية النسوة أنه برئ... وأنه لم يرتكب إثما.

وهذا هو الذي كان.. فقد أقررن بذنبهن وأنهن افترين السوء على يوسف..

ما هذا بشر.. إن هذا إلا ملك كريم.

ولو لم يكن كذلك لما وثق فيه فرعون نفسه... فقربه إليه وجعله أميناً علـى خـزائن الأرض. فطبق سياسة اقتصادية حكيمةً وملهمةً بعد تفسيره للرؤيا بأن يعلموا علـى تخـزين القمح سبع سنين وهي أيام الخصب ليدخرها إلى أيام الجفاف والقحط وهي سبع سنين أيـضا، وبذلك يتجنبون المجاعة. وفعلاً... فقد جنب البلاد كارثة عظيمة. علما بـأن الـبلاد ليـست بلاده.. فهو عبراني وقومه في أرض كنعان.. أبوه وإخوته وأهله جميعا.

ومن أجل أن تتحقق كلمة الله كان القحط الذي حل بالمناطق المجاورة أيضا سببا فـي أن يأتي إليه إخوته طالبين الميرة وشراء القمح. عرف بأمرهم واستيقظ حنينه إليهم وإلى أبيه الشيخ الصابر المكابر على البأساء والضراء فما كان منه إلا أن أكرمهم، وباعهم مـا كـانوا يريدون شراءه، لكنه اشترط عليهم لو عادوا إليه مرةً أخرى أن يأتي الإخوة جميعـا ومعهـم الابن الأصغر (بنيامين).

ولما عادوا بعد أن أقنعوا أباهم . بمزيد من المشقة وبكثير من الوعود الصادقة . أن يرسل معهم الأصغر (بنيامين) لتزيد حصته ولينقذوا أمر خازن الملك بـ.دأت القـ.صة تأخـ.ذ نهايتها. فالوسيلة التي يتخذها يوسف ليعلن عن نفسه ويضم إليه كل أسرته كانت بأن يحتجـ.ز لديه هذا الأخر الأصغر بحجة أن مكيال الفضة الخاص بالملك قد وجد بين متاعه، ويجـ.ب أن يظل حيث هو حتى يعود إخوته مرة ثالثة ومعهم الثمن.

ولم يجد الأخوة بدا من أن يصارحوا أباهم بما حصل،... وهم هذه المـ.رة صـ.ادقوا النية، وتمنوا لو أن أحدهم افتدى أخاه الصغير (بنامين) فسجن عوضا عنه.

والأب الشيخ الذي فجع بيوسف مرةً لم يعد قادرا على احتمال الألم بفقـ.د (بنيـ.امين) فظل يبكي.. ويبكي حتى ابيضت عيناه من الحزن واستسلم لقضاء الله.

ما هذا بشرا..

عند عودة الإخوة سامحهم يوسف على الخطأ أو الذنب الذي ارتكبوه بالتفريط في حق أخيهم كما فرطوا بحقه من قبل.. وهكذا تكون العبرة والموعظة بالتجربة والحـ.سرة والنـ.دم. وإذا يصطحبون أباهم معهم كما اشترط عليهم يوسف يتكشف كل شيء فيدركوا أنه هو يوسف أخوهم.. وأن الله امتحنهم.. فتابوا وأذعنوا، وطلبوا المغفرة من الله تعالى ثم من يوسفَ نفسه.

ما هذا بشرا...

وتتحقق رؤيا يوسف النبي الكريم الذي اصطفاه ربه ورفعه فوق مرتبة البـ.شر إلـ.ى مصاف الملائكة عندما يسجد أمامه إخوته الأحد عشر، ويسجد معهم أبوه وأمه، بل يـ.سجدون جميعا لله تعالى.. تماما كما الكواكب التي تجلت له في الرؤيا... فـ.الأخوة هـ.م الكواكـ.ب.. والشمس والقمر ما هما إلا أبوه وأمه.. فالقمر يستمد نوره من الشمس... والأم تستمد إنجابها من الأب.

ما هذا بشرا...

أجل إنه نبي الحكم والحكمة والرؤيا الإلهية والمعرفة. نبي الصبر والإيمان والوفـ.اء والإذعان لما يريده الله تعالى. والله يضع سره فيمن يختار ويشاء. من الرسل والأنبياء.

* * *

"وجعلناه نبيا"

وجعلناه نبيا...

ذلك هو يحيى أو يوحنا المعمدان كما سمي فيما بعد.. نبي وابن نبي، أبوه زكريا النبي الذي اصطفاه الله ليكفل العذراء (مريم) وقد نذرتها أمها امرأة عمران للمحراب... ولعبادة الله التواب. وشهد حملها بكلمة من الله كما آدم. وطافت بالمحراب الملائكة.. وهو الشيخ الطاعن في السن المحروم من الولد.. وامرأته (اليصابات) العجوز العاقر. فتمنى على ربه أن يرزقه بغلام.. وإذا بالملائكة تبشره بهذا الغلام الذي اسمه يحيى... وما عرف هذا الاسم لأحد من قبل.

وبين فرح الأب الشيخ بحمل زوجته.. وبين وفائه لنذره وعلامة البشارة ألا يكلم الناس ثلاثة أيام تكون المعجزة.... وهي على الله تعالى يسيرة هينة.

وجعلناه نبيا...

والنبي يحمل النبوة صلاحا وتقوى وحكمة قبل أن يحملها رسالة يبلغها للناس.. والنبي يهتدي إلى طريق الحق قبل أن يهدي الناس إلى هذه الطريق. وهكذا كان يحيى، فقد تفقه بالشريعة الموسوية[٥] منذ صغره حتى أصبح بارعا في الحكم بين الناس، وإظهار أحكامها وما هو الحرام والحلال فيها، والحدود الفاصلة بينها، ولكي يصل إلى هذه المرحلة كان يهيم في البراري متأملاً متفكرا زاهدا في متاع الدنيا من طعام وشراب ولباس حتى قيل إنه كان يرتدي من الثوب أخشنه.. ويتناول من المأكل أقله.. ويشرب من مياه العيون في البرابري...

وجعلناه نبيا...

وقومه من العبرانيين الموسيين يرتكبون الأخطاء في حق الشريعة السماوية السمحاء فيميلون إلى حب الذهب والفضة.. ويعشقون حياة البذخ والترف.. وينسون الفقراء والمساكين والضعفاء.

لابد إذن من الإصلاح... وأن يتوب الناس عن ذنوبهم ويرجعوا إلى الله وإلى الحق والشريعة.. ولكن كيف؟ هل يكفي أن يخاطبهم فردا فردا.. أم أنها دعوة يجب أن تنشر؟

وهكذا.. وقد اكتملت نبوته مع اكتمال شبابه، بدأ يصرخ بالناس وهم في تجمعاتهم وفي أسواقهم ونواديهم، ويبين لهم الخطأ من الصواب. ومن اعترف بالذنب منهم فعليه أن يلحق به إلى نهر الأردن ليغتسل ويتطهر تعبيرا عن غسل هذه الذنوب. وبداية حياة طاهرة كريمة فيها صلاحه في الدنيا.. وثواب الله وجنته في الآخرة. وتدفقت الجموع نحوه.. وما أكثرهم من الفقراء والبؤساء والمساكين والذين لا تعد ذنوبهم جسيمة قياسا إلى المجرمين والمترفين وعشاق المال.

---

(٥) نسبة إلى سيدنا موسى عليه السلام.

وشاع أمره وذاع.. ولفت انتباه الحكام والمتسلطين وأصحاب النفوذ والخارجين على الشريعة... فماذا يفعلون والناس من حوله كالسيل المتدفق حتى أن المسيح نفسه عبر أمامه نهر الأردن فعمده وباركه؟ ألا تكفيهم دعوة المسيح وما تفعله في الناس بحكم المعجزات والخوارق وانتشارها كالنار في الهشيم؟

إذن.. لا بد من إيقاف الفتنة...

أرسلوا له من يحذره مما يفعل... إذ كيف يحق له أن يعمد المسيح وهو نبي مذ ولادته بل قبل ولادته؟.. وكأن المسيح هو الذي يعترض على ذلك أو يستاء منه. ولما سألوه: هل أنت النبي؟ أجاب: لا. فقالوا له: من أنت إذن؟.. وخشي أن يطغى على نبوة المسيح.. فقال: أنا صوت صارخ في البرية.

لم يعد أمام أعدائه وأعداء الطريق القويم إلا الحيلة والمكر والخداع، إذ أن الحاكم على فلسطين نفسه (هيرودوس) لا يستطيع أني فعل شيئًا أمام هذه الأمواج من البشر التي يعمدها يحيى أو يوحنا وقد سموه المعمدان... وماذا يهمه من أمره ما دام هو الحاكم. وبيده مقاليد السلطة والنفوذ والمال وحوله هؤلاء الناس من البطانة والحاشية، ومن الصيارفة وأصحاب الغني والثراء؟

وكانت المكيدة أن أرادت امرأة (هيرودوس) أن تستغل جمال ابنتها (هيروديا) (وهـ.ي ليست ابنة هيرودوس بالطبع) لتصل إلى أطماعها عن هذه الطريق وينفذ لها الحاكم ما تريد.. فأغرت الفتاة أن ترقص وتطرب.. بينما الحاكم يلهو ويطرب حتى إذا سألها ماذا تريد فتطلب رأس يوحنا.

وهذا الذي حصل بالفعل... إذا عندما سألها الحاكم: ماذا تريدين يا هيروديا؟ مـ.الا أم مجوهرات؟ أم إقطاع أرض أم نفوذ؟

قالت: أريد أن تأتيني برأس يوحنا على هذا الطبق.

وأشارت إلى الطبق الذهبي المملوء فاكهة وشرابا وما لذ وطاب من الطعام... فـ.أمر الحاكم الجند فقبضوا على يوحنا وقطعوه رأسه وقدموه هدية للمرأة الماكرة.. وابنتها الفاجرة.

ويقال إن الرأس بعد أن انفصل عن الجسد ظلت تدب فيها الروح.. فالشفاه تتمتم باسم الله. والعيون تبكي دما على الخطاة... ولما رموا الجسد احتفظ المؤمنون بالرأس.. وأقاموا له ضريحا في إحدى الكنائس..

ويقال إن صاعقة حارقة قصفت القصر ومن فيه من الفجرة الكفرة، وعمت الفوضـى واندلعت ألسنة النار... نار العقاب والعذاب، فاستطاع المؤمنون خفية من الحرس والجنـد أن ينقذوا الرأس المقدس...

وجعلناه نبيا...

وكم يضحي الأنبياء.. وكم يتحملون ويبذلون.. حق إنهم بأرواحهم يفتدون رسالاتهم.

الفهرس

سلام على نوح ٤

يا نَار كُوني بردا وسلاما..... ١١

وآتَينَا داوود زبوراً..... ١٨

ما هذا بشرا... ..... ٢٦

وجعلناه نبيا ٣٣

رقم الإيداع	٢٠٠٢ /١١٤١٦
الترقيم الدولي ٨ – ٦٣٣٣ – ٠٢ – ٩٧٧ ISBN	

٧/٢٠٠٢/٢٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)